٣ ـ بديع الزمان الهمذانى

للدكتور عبد الوهاب عزام

رحيله عن نيسابور

فارق بديع الزمان نيسابور سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة . نعرف هذا من قوله وهو يمدح خلف بن احمد ان سنه خمس وعشرون سنة . وهو مولود سنة ثمان وخمسين . ثم هو يكتب من سرخس الى الشيخ ابى الطيب سهل بن محمد فيذكر ان الخوارزمى كتب الى الامير يسأله ألا يقبله فى حضرته ويذم الخوارزمى ويرد عليه دعواه الغلب فى مناظرته ، ويهدده بالعود الى مساجلته . والخوارزمى مات فى رمضان سنة ثلاث وثمانين

ويفهم من هذه الرسالة أنه ذهب الى مرو كذلك ، يقول عن الخوارزمى ، ان اللسان الذى أخرس لسانه ، والبنان الذى أنبس بيانه ، لم تكسبهما مرد مجادة ، ولا كستهما سرخس بلاده . وهما معى لم يفارقانى : (١)

(١) الرسائل ص ٨٩

صناعته ، وكانت له مرونة فى الأسلوب عالية ، فبلغ فى النهاية غاية الجزالة والسلاسة ، وكان له من الوقت متسع للتجريب والمحاولة ، ولو عمل على إخصاب اللغة بيده هذه الأساليب الغربية فيها لخدمها خدمة أجل كثيراً من خدمته إياها بمعالجة النظم التمثيلى فى أخرياته أيامه ، ورواياته التمثيلية ذاتها شاهدة بذلك : فان ميزتها الكبرى والوحيدة براعة الديباجة ، أما اذا قيست بمقياس التأليف التمثيلى وقوبلت بالمؤلفات الغربية التى كان يقلدها ويترسمها فلن تكون شيئاً مذكوراً

على أنه اذا كانت العربية قد فقدت شوقياً وحافظاً اللذين عالجاها حقبة وتمكنا منها ، فما يزال لها من كبار الشعراء المجربين من هم قادرون على توسيع أفقها ومضاعفة ثروتها بطرق هذا الباب من الاقتباس والابتكار ، فلعلهم يتقدمون ، ولعل مجهودات الأستاذ فريد أبى حديد تكون الخطوة الأولى فى هذا السبيل .

فخرى ابو السعود

ولم يسم الأمير الذى نزل بحضرته فى سرخس ، والظاهر أنه أحد أمراء السامانية . وقد أكرم الأمير مثواه كما قال فى آخر الرسالة نفسها عن الخوارزمى : « وأما مسألة الأمير الأيخرطى فى سلكه ولا يمكننى من بساط ملكه فقد شملنى على رغمه أطراف النعم ، وبلغنى سحائب الهمم ، وللراغم التراب ، وللحاسد الحائط والباب »

وفى سنة ثلاث وثمانين مات الخوارزمى ! يقول الثعالبى « واجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى ، وتصرفت به أحوال جميلة ، وأسفار كثيرة »

وفى رسائل بديع الزمان رسالة كتبها الى من هنأه بمرض الخوارزمى يقول فيها : (فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ، ولا يعدمها فى جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت (ص ٨٢ الى آخر الرسالة)

وفى ديوانه قصيدة يرثى بها الخوارزمى ويرد على من قال : « قد خلا الجو للهمذانى » يقول فيها :

حنانيك من نفس خافت ... وليك من كمد ثابت
أبا بكر اسمع . وقل كيف ذا ... ولست بمسمعة الصائت ؟
تحملت فيك من الحزن ما ... تحمله ابنك من صامت
حلفت لقدمت عن معشر ... غبين عن خطر الماثت
يقولون أنت به شامت ... فقلت الثرى بفم الشامت
وعزت على معاداته ... ولا متدارك للفائت
وقال الأنام خلا الجو لى ... لعمرى ولكن على عانت
أبيض ولكن الى عاقر ... وأصفر لكن على ساكت

أكثر البديع أسفاره بعد مفارقة نيسابور . يقول الثعالبى :

« ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها وجبى وجبى ثمرتها ، واستفاء خيرها وميرها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا استمطر منه بنوء ، وسرى معه فى ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم » ويقول الهمذانى فى رسالته الى القاسم الكرجى : « فانى وان كنت فى مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وقدى الخير والشر ، وصافحت يدى النفع والضر »

وفى رسالة أخرى : « وانى أيد الله القاضى ، على قرب العهد بالمهن قطعت عرض الارض وعاشرت أجناس الناس . » (١) وليس يمكن مما عندنا من الرسائل غير المرتبة ان نتتبع أسفاره فى خراسان

(١) الرسائل ص ٤٨ ، ١٦٣

وسجستان وغزنة ، ولكنا نعرف أنه فارق خراسان لما وقع بها من الحروب ، والظاهر أنها الحروب التي وقعت في أواخر الدولة السامانية ، ونعرف ان الاتراك قطعوا الطريق عليه وهو مبيم سجستان كما قطع الأعراب طريقه وهو قاصد نيسابور من جرجان : « ولما وقع بخراسان ماوقع من حرب ، وجرى ماجرى من خطب ، واضطربت الأمور ، واختلفت السيوف ، والتقت الجموع وظفر من ظفر ، وخسر من خسر ، كتبني الله في الأعلين مقاما ، ثم الهمني من الامتداد عن تلك البلاد ، والاقلاع عن تلك البقاع . واعترضتنا في الطريق الأتراك . وأحسن الله الدفاع عن خير الأعلاق وهو الراس ، بما دون الأعراض وهو اللباس . فلم نجزع لمرض الحال مع سلامة النفوس ، ولم نحزن لذهاب المال مع بقاء الرؤوس . وسرنا حتى وردنا عرصة العدل ، وساحة الفضل ، ومربع الحمد ، ومشرع المجد ، ومطلع الجود ، ومنزع الأصل ، ومشعر الدين ، ومفرع الشكر ، ومصرع الفقر ، حضرة الملك العادل أبي أحمد خلف بن أحمد الخ ، (١) هذا هو الذي مدحه في ست من مقاماته ، وبعض رسائله مدحا لم يبذل لغيره مثله ، ولكن بديع الزمان لم يعفه من العتب الموجع حين آنس منه الاغضاء عنه .

ثم ذهب الهمذاني الى غزنة حاضرة الدولة الغزنوية ومدح السلطان محموداً بأبيات . ولا نجد في رسائله تفصيل مقامه في غزنة ولقائه السلطان . ولكنا نجد له رسائل كثيرة الى الفضل بن أحمد الاسفرائيني وزير السلطان يذكر بعض خطوب هذه الدولة ، ويهنيء ببعض فتوحها . والأبيات التي مدح بها السلطان مثبتة في الديوان ، وفي اليتيمة وأولها :

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيمانى
أ أفريدون في التاج (م) أم الاسكندر الثاني ؟
أم الرجعة قد عادت الينا بسليمان
أظلت شمس محمود على أنجم سامان

في نهراة

ثم سار الى هراة ليرحل عنها كما رحل عن غيرها ، ولكن كتبت له الاقامة بها حتى الممات . يقول في رسالته الى الشيخ أبي نصر انه سار من سجستان الى بوشنج ، وأنه لما سكنت الحرب وانفتحت السبل استأذن الأمير في المسير الى هراة . ويقول في رسالة أخرى « وياسبحان الله ماعلمت ان هراة تنسيني صرصر والصرات ، حتى انستني دجلة والفرات ، على ظهر الغيب نظر الريب . فكيف بنا اذا دخلناها وحللناها فسقاها الله من بلد ، وأهلها من عدد . »(١) وذلك أن بعض الهرويين أرسل اليه مرحبا قبل دخوله المدينة ، ويظهر من رسائله أنه لم يغتبط بالاقامة في هراة أول عهده بها ، ولا أزمع المقام فيها ، يقول في رسالته الى الشيخ ابي النصر : « كتابي أطال الله بقاء الشيخ ، والماء اذا طال مكثه ، أظهر خبثه ، واذا سكن متنه ، تحرك تنه .

كذلك الضيف يسمج لقاؤه ، اذا طال ثواؤه ، ويثقل ظله ، اذا انتهى محله . قد حللت أشطر خمسة أشهر بهراة ولم تكن دار منزلا لولا مقامه . » (٢) ونجده : في رسالة أخرى يشكو حيفا أصابه في هراة . « والله ، أطال الله بقاء الشيخ الرئيس ، ماسكنت هراة اضطرارا ، ولا فارقت غيرها فرارا . وانما اخترتها قطنا ودارا ، واخترته سكنا وجارا ، لتكون أرفق لي من سواها ، ولأزداد به عزا وجاها . فان كان قد ثقل مقامي ، فالدنيا أمامي ، وان كان قد طال ثوائي ، فالانصراف ورائي . لست والله ذباب الخوان ولا وتد الهوان . والشام لي شام ، مادام بكرمني هشام . وهراة لي دار ، ماعرف لي فيها مقدار ، وقرى الضيف غير السوط والسيف الخ ، فهذا يدل على أنه غير مطمئن الى هراة وان اختارها سكنا . ونجده في الديوان يقول من قصيدة مدح بها ابن عدنان رئيس هراة .

قد طال مكثي في هراة فهل لكم ... في ان أوليكم قفا الاعراض
ولو انني ماء الحياة لمن يراده ... وتنكبوا أحواضي
أحسنتم بالاكرام ضيافتي ... عند الورود فأحسنوا إنهاضي

ولكن بديع الزمان ، على هذا ألفى عصا التسيار في هراة واتخذها موطنا وأمضى بها بقية عمره . فما الذي بدل رأيه وحبب اليه المدينة ؟ يقول الثعالبي : « ومازال يرتاد للوصلة بيتا يجمع الأصل والفضل ، والطهارة والستر القديم والحديث حتى وفق التوفيق كله وخيار الله له في مصاهرة أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي . وهو الفاضل الكريم الأصيل الذي لايزاد اختبارا الا ازيد اختبارا . فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره ، وتعرفت القرة في عينه ، والقوة

(١) الرسائل : ط - بيروت ص ٤٣٢

(١) ص ١٠
(٢) ص ١١٠

فى ظهره . واقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة ، وعاش عيشة راضية . » (١)

وفى رسائل الهمذانى تصديق خبر الثعالبى ، فهو يقول فى إحدى رسائله من هراة « والله لولا يد تحت الحجر ، وكبد تحت الخنجر ، وطفلة كفرخ يومين ، قد حببت الى العيش ، وسلبت عن رأسى الطيش ، لشمخت بأنفى عن هذا المقام (ص١٦٢) وهو يتكلم فى رسائل هراة عن الزرع والأكرة والخراج وديونه على الناس والمفاتيح « والشأن أن أعيش عيش الجعل ، بين السرقين والعمل ، وانا على ذلك محسود . . . أرأيت رجلا يندم أن ولده آدم ، أو يألم أن يسعه العالم ، يحسد فى قرية يشتريها » (٢) وفى رسالة الى بعض وزراء السلطان محمود : « ومما أبث الشيخ الجليل ، ان مبلغ خراجى بهراة ألفان . وعلى المخف من الجريان ثلاثة مدورة ، بيض مقشرة ، وعلى المثقل تسعة وعشرة . ووددت لو أمكن التبلغ بأقل من هذا فأفعل ولكن الفواها فاغرة ، وأضراسا طاحنة ، وعيالا وأذيالا ، الله وكيلهم وأنا ربهم وأكيلهم . وإن أمكن تحويل هذا المقدار من الخراج ببوشنج لتتوفر حقوق بيت المال ، وأصان عن مجازفات العمال ، وتبعات الحال ، فتلك غاية الآمال » (٣) وفى رسالة الى والده : « وقد رسمت لموصل كتابى هذا أن ينقده مائة دينار بشرط ان يخرج ، وان يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العم ، فليتفضلا وليقوما ويرحلا ، ويستصحب الأخ أباسعيد ، وليأتنى بأهله أجمعين فما يعجبنى لقاء ليس له بقاء ، ولا وصل بعده فراق ، فان لم يمكن استصحاب القوم فلا يتأخر بنفسه ، فسيرد على خمسمائة نير وألف أكار ، وأحوال منتظمة ، وأسباب مستقيمة » .

ومن أجل هذه الثروة قصده الناس واستماحوه . وفى رسائله واحدة كتبها الى مستميح عاوده مرارا : « عافاك الله : مثل الانسان فى الاحسان مثل الاشجار فى الاثمار . سئل من أتى بالحسنة أن يرفه الى السنة . وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى ، وهما فؤادى ويدى . أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالجود . ولكن هذا الخلق النفيس ، لا يساعده الكيس ، الخ » (ص١٩٧)

وفاة بديع الزمان

كان الهمذانى يتعجل العمر ويستكثر السنين فهو يتكلم عن الشيب فى مدحه خلف بن احمد وهو فى سن الخامسة والعشرين ، ويرحب بالشيب ويفضله على الشباب وهو فى سن الثلاثين : « فجزى الله الشيبة خيرا ، انها لأناة ، ولا رد الشيبة أنها لحناة ، وبئس الداء الصباء وليس دواؤه الا انقضاؤه ، وبئس المثل النار والعار ، ونعم الرائضان الليل والنهار . وأظن الشباب والشيب لو مثلا لكان الأول كلا عفوراً ، والآخر شيخا وقورا ، ولاشتعل الأول نارا وانتشر الآخر نورا . والحمد لله الذى بيض القار وسماه الوقار . وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد . ان السعيد من شابت جملته ، والشقى من خضبت لحيته » (١) وفى رسالة أخرى : وأسأل الله خاتمة خير وعاجل وفاة . ان بطن الارض أوسع من ظهرها وأرفق بأهلها . » (٢) فهذا ينم عن طبع مكتئب وصدر يضيق بالحياة وكأن وفاته فى سن الاربعين كان استجابة العمر لهذه السجايا .

فى رسائله رسالتان يذكر فيهما مرضه ، يقول فى احداهما : « وقد عملت فى أمر الدواء ما أشرحه له شفاها . وجملة الأمر أنى أؤمل النفع فى تناوله ، وحالى الآن صالحة » ويقول فى الأخرى : « ولكنى وقيذ أوجاع ، أتنقل من حمى الى صداع . وأخشى أن يأخذ منى لفح الهواء مأخذه ، فلذلك لا أبرز عن البيت ، وأنا فيه حى كميت . وعلى كل حال فاذا خفت وطأة الهواء ، وحان وقت المساء ، لعبت لعباتى الى حضرته ، متزودا من طلعته ان شاء الله تعالى » وما أدرى متى أصابه هذا المرض وهل كان مرضه الأخير أو غيره .

ويقول الثعالبى : « وحين بلغ أشده ، وأربى على الأربعين سنة ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . » ويقول جامع الرسائل فى عنوان رسالة « وله فى تهنئة فتح الجابية بباب بلخ . وهذا آخر كتاب أنشأه . ومات يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . »

يتبع

عبد الوهاب عزام

(١) اليتيمة ج ٢ ص١٦٩ (٢) ص ١٦ ، ١٦٢
(٣) ص ١٣١

(١) ص ١٤٥ الرسائل
(٢) ص ١٤٦

تصويب

جاء فى مقال الاستاذ احمد أمين المنشور فى صفحة ٥٦٥ من العدد السابق قوله فى السطر الرابع عشر من العمود الثانى (نعم قد اجدت اللغة على الادب كثيرا) والصواب (أجدت اللدة)